Université Ibn Tofaïl
جامعة ابن طفيل
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - القنيطرة
Faculté des Sciences Humaines et Sociales – Kenitra
شعبة التاريخ والحضارة


الفصل: الثاني

# وحدة: الغرب الإسلامي

## من المرابطين إلى نهاية المرينيين


الأستاذ: حميد اجميلي


**المحاضرة رقم: 4**

السنة الجامعية

2021-2020

# الهجرات البشرية في المغرب الأقصى ( نماذج من الهجرات الكبرى)

ثمة صعوبات كثيرة تعترض الباحث الذي يحاول دراسة وتتبع الحركات السكانية والهجرات البشرية في بلاد المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، والتي تتجلى في عدم ذكر الهجرات السكانية بشكل مفصل في أهم كتب التاريخ باستثناء التطرق إلى بعض الهجرات الكبرى البربرية والعربية والتي تفتقر إلى الأرقام والمعطيات الإحصائية عن عدد المهاجرين من منطقة إلى أخرى، وغياب معطيات دقيقة حول الهجرات السكانية، وعدد الأفراد المهاجرين نحو مدن وبوادي المغرب الأقصى. فبعض المصنفات التراثية التاريخية، أشارت إلى الهجرات الكبرى التي تمت في هذه الفترة التاريخية، كالهجرة الصنهاجية والمصمودية والزناتية، وإن تحدثت عنها في سياق تحول هذه القبائل إلى دول حاكمة وانتقالها من حياة الترحال والبدوية إلى مرحلة التمدن والاستقرار بمراكش وفاس وغيرها من المدن المغربية. فضلا عن الهجرة العربية التي بدأت مع الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا وتطورت في عهد الأدارسة وما بعده، خاصة مع تهجير عرب بني هلال نحو المغرب الأقصى من لدن يعقوب المنصور الموحدي نهاية القرن السادس الهجري، واستقر هؤلاء في أخصب السهول المغربية. إذن ما هي أبرز الهجرات البشرية الكبرى التي اتجهت نحو المغرب الأقصى ؟ وما أهم المناطق التي توافد عليها سكان القبائل واستقروا فيها؟ وكيف ساهم نزوح الأفراد من مختلف المناطق مع اختلاف مهنهم ومهامهم في تعزيز البنية الديموغرافية بالمدن والمناطق المغربية؟

## 1- الهجرة الصنهاجية ودورها في تعزيز البنية السكانية للمغرب الأقصى خلال العصر المرابطي وما بعده

لقد ساهم قيام الدول المركزية بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط في نزوح أعداد مهمة من السكان الصنهاجيين من جنوب المغرب وجهته الشرقية نحو مناطق الوسط والشمال فعندما " **جاءت دولة لمتونة... خرجوا من مواطنهم بالصحراء إلى بلاد المغرب، وافتتحوا الكثير من معاقل السوس الأقصى وجبال المصامدة**"، ذلك أن قيام الدولة المرابطية سجل على حد قول أحد الباحثين[1] أكبر هجرة صنهاجية من الجنوب الصحراوي نحو الشمال المغربي، وهي هجرة تندرج ضمن الهجرات الكبرى التي شهدها العالم الإسلامي ، منذ بداية القرن الخامس الهجري، والتي واكبت تأسيس الجيش المرابطي الذي توجه نحو الشمال بعد إخضاع المناطق الجنوبية ، التي كانت تعاني

[1] - إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث، ص 18.

من ظروف اقتصادية صعبة. وقد شاركت قبائل بربرية مختلفة إلى جانب صنهاجة، كجزولة والمصامدة وزناتة، فضلا عن الأغزاز والرماة، وقد بلغ عددهم مائة ألف محارب سنة 454هـ وليس من المستبعد أن تكون لتحرك هذا العدد نحو الشمال المغربي نتائج ديموغرافية على المناطق التي حلوا بها في الرفع من عدد سكانها .

ومن بين المناطق التي استفادت من النزوح الصنهاجي مدينة أغمات، التي اكتظت بعدد السكان ولم تعد قادرة على استيعابهم، " **فكثر الخلق بها، وضيقوا على أهلها وكانوا في حالة صعبة**"، هذه الوضعية الديموغرافية الناجمة عن الأعداد الكبيرة من العناصر الصنهاجية ، دفعت أشياخ أغمات إلى رفع شكوى إلى الأمير أبي بكر اللمتوني، ومن ثمة بدأ تفكير المرابطين في إنشاء مدينة مراكش. الذي يعتبر تأسيسها الانطلاقة الحقيقية للهجرة الصنهاجية المنظمة . فبعد بناء المدينة أرسل يوسف بن تاشفين في طلب عشيرته وأقاربه اللمتونيين للوفود عليه ، فوصلوا إليه في أعداد كبيرة. كما قام أبو بكر اللمتوني بجلب مجموعات صنهاجية هامة من الجنوب نحو المغرب الأقصى.

ثم حدثت هجرة ثانية، ضمت العناصر الصنهاجية، التي زودت المغرب الأقصى بعناصر سكانية ساهمت في الرفع من حجم عدد السكان خصوصا بعد مشاركة هذه العناصر في الجيش المرابطي الذي يعتمد على "**سياسة الغزو واقتصاد المغازي**"، وقد انتهى الأمر في الاستقرار بالمغرب الشمالي الذي يتميز بخصوبة أراضيه، وتوفر الظروف الملائمة للاستقرار. وعموما فقد توافد الصنهاجيون على معظم مناطق المغرب الأقصى حيث يشير أحد المؤرخين بقوله: " **فوفدوا إليه منهم جموعا كثيرة، وكثروا بكل مكان**". وقد لفت الانتباه أحد الباحثين، أن ثمة عوامل ساعدت على التعجيل بالهجرة الصنهاجية، ذلك أن يوسف بن تاشفين كان يسعى إلى تقوية عصبيته، حتى يتمكن من تأمين قوة دولته، وكذا القدرة على تقوية جيشه وتحقيق الانتصارات التي تحقق مكاسب سياسية واقتصادية. وقد خلص الباحث نفسه أنه " **يمكن أن نربط بين الهجرة الصنهاجية واقتصاد المغازي القائم على التوسع وغنائم الحرب**".

أبرز الباحث إبراهيم القادري أن القبائل الصنهاجية المهاجرة انتشرت على الساحل الأطلسي من نول لمطة إلى جنوب سوس، والأطلس الصغير الذي سكنته قبائل جزولة ولمطة ، وتوزعت مجموعات صنهاجية بالقرب من المحيط الأطلسي نحو مصب أم الربيع جنوب آزمور، وأجزاء مهمة من منطقة الريف، فضلا عن وجود عناصر من قبائل مسوفة بسجلماسة. وهذا ما جعل الدارس نفسه[2] يستنتج أن الصنهاجيين تمركزوا في مجال جغرافي سكاني على شكل مثلث، قمته نحو البحر الأبيض المتوسط، وقاعدته على الأراضي والواحات المغربية. ومن ثم يكون المغرب قد عرف تغيرا في خريطة توزيع السكان والتعمير، ذلك أن العديد من المناطق لم يستقر بها السكان إلا بعد قيام الدولة

[2] - المرجع نفسه والصفحة .

المرابطية، خاصة في الأطلسين الكبير الشرقي والمتوسط وبلاد فازاز، فضلا عن وجود مناطق قرب مدينة داي في أحواز تادلة سكنتها بعض القبائل الصنهاجية أبرزها صنهاجة أملو.

ولاشك أن زحف صنهاجة نحو المناطق الشمالية قد غير من خريطة التركيب السكاني، بسبب حروبهم ضد قبائل برغواطة، حيث هاجر سكان تامسنا بأعداد كبيرة نحو السوس وجبال الأطلس، وفي الوقت نفسه تم تعمير منطقة تامسنا بالصنهاجيين. ومن ثم نخلص إلى أن التغيير السكاني لمنطقة تامسنا قد حدث بعد الهجرة الصنهاجية إليها، ولن تكون هذه آخر هجرة نحو المنطقة، خاصة إذا علمنا أن بعض القبائل العربية الهلالية التي جلبها يعقوب المنصور الموحدي ( 580-595هـ )، قد استقرت بهذه المنطقة *. ومن ثم نؤكد على التمازج السكاني بين مختلف العناصر البشرية رغم اختلاف الأعراق. فالمغرب تمكن من تشكيل الدول التي تعاقبت على حكمه خلال العصر الوسيط من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجريين اعتمادا على ثلاث عصبيات كبرى وهي "صنهاجة" و"مصمودة" و"زناتة" .

والجدير بالإشارة أن العناصر الصنهاجية لم تختر فقط البوادي للاستقرار، وإنما اختارت أيضا المدن التي فتحت من طرف الجيش المرابطي، من بينها مدينة أغمات التي اكتظت بالسكان، فضلا عن استقرارهم بمدينة مراكش بعد بنائها واتخاذها عاصمة للمرابطين، وكذا مدينة فاس.

وغني عن البيان أن الجيش المرابطي أثناء فتحه لكل المناطق البدوية والحضرية بالمغرب كان يترك جزءا من عناصره الصنهاجية التي تولت مهمة تحقيق الأمن والاستقرار، ومن ثم أصبحت بعد قيام الدولة وتحقيق الأمن جزءا من المكونات البشرية لهذه المدن. وإضافة إلى أغمات و مراكش وفاس ، التي استقطبت أعدادا مهمة منهم ، فقد توجهت عناصر أخرى نحو مدينة سلا، ومدينة مكناسة التي تميزت بملائمة معطياتها الطبيعية للاستقرار ، حتى أن المصادر تؤكد أن إحدى حوائر مكناسة بناها أحد الأمراء الملثمين ليسكنها في جملة من أبناء عمه، ويقال أنها: " **سميت مكناسة باسم مكناسة البربري، لما نزلها مع بنيه عند دخولهم المغرب، وأقطع كل ابن من بنيه قطعة يعمرها مع ولده، ولكل هذه المواضع التي أحلهم فيها تتجاور وتتقارب أمكنة بعضها من بعض**".

يشير أحد الدارسين أن القبائل الصنهاجية هاجرت نحو منطقة الشمال خاصة بمدينة طنجة ووادي ورغة، مع العلم أن وجود العنصر الصنهاجي كان قبل هذه الهجرة ، غير أن عناصر صنهاجة الصحراء قد تزايد عددهم بالمناطق الشمالية، خصوصا وأن هذه القبائل كانت تشارك في الحملات العسكرية المتوجهة نحو الأندلس، ومن ثم قد تكون بعض العناصر فضلت الاستقرار في مدينة طنجة وباقي المدن الساحلية الشمالية. التي تشمل البصرة وقصر صنهاجة وشرق الريف ومدينة تازة والمزمة. ومن بين القبائل التي استقرت هناك قبيلة بطيوة،

* - سنفصل فيها القول لاحقا عند الحديث عن هجرة العنصر العربي نحو المغرب الأقصى.

وقبيلة لمطة التي استوطنت المجال بين فاس وتاودا. وقد استنتج الدارس نفسه أن هجرات القبائل الصنهاجية الواسعة، أفرزت نتائج اجتماعية مهمة وتغير في الخريطة السكانية لمعظم مناطق المغرب الأقصى، فقد تم تعمير شمال المغرب وجبل فازاز الذي أضحى منطقة سكنية صنهاجية.

ومن ثم يمكن القول إن قبائل صنهاجة في عهد الدولة المرابطية مثلت أهم عناصر سكان المغرب ، فضلا عن تحركاتهم البشرية نحو المناطق الداخلية والشمالية في المغرب الأقصى، مما نتج عنه بروز "خريطة سكانية" جديدة تأخذ بعين الاعتبار العنصر الصنهاجي الذي أفرغ مناطقه الجنوبية وعمر مناطق فارغة. غير أن المعطيات ستتغير مع قدوم الدولة الموحدية التي اعتمدت على القبائل المصمودية في تشكيل قوتها. إذ ستتغير الخريطة السكانية من جديد، لكن هذا لا يعني إعادة الصنهاجيين إلى المناطق الصحراوية التي قدموا منها، بل بعضهم حافظ على مكان استقراره.

ومهما يكن من أمر فإن العناصر الصنهاجية قد حافظت على وجودها ضمن الدولة الموحدية والمرينية، إذ تشير عبد المالك المراكشي إلى استقرار العناصر الصنهاجية بالمدن المغربية وتوليهم العديد من المناصب الإدارية وثمة بعض النماذج من الشخصيات الصنهاجية التي توضح ذلك، على سبيل المثال: ميمون بن علي بن عبد الخالق الصنهاجي، أصله من فاس أو من بعض أرباضها توجه إلى الأندلس مرارا، ثم سكن مراكش وولي حسبة السوق فيها، وتوجه صحبة الرشيد الموحدي إلى سلا فأدركته الموت فيها سنة 637 هـ. ، ومحمد بن علي بن أبي بكر بن عيسى الصنهاجي من قلعة بني حماد استوطن مراكش في آخر عمره، ولي القضاء بالجزيرة الخضراء وسلا سنة 612 هـ، وبأزمور ومرسية توفي بمراكش بسبب خدر أصابه سنة 629 هـ، وعمر بن محمد بن علي الصنهاجي تفقه بمراكش ثم رحل في طلب العلم إلى المشرق، ثم عاد إلى مراكش سنة 622 هـ وتوفي فيها. ومحمد المعز الصنهاجي السبتي كان طبيبا وموثقا بسماط العدول، غرب مع من غرب من أكابر سبتة أيام "قيام العامة، نحو فاس" توفي فجأة بفاس سنة 792 هـ .

## 2- هجرة قبيلة "كومية" من المغرب الأوسط للاستقرار في المغرب الأقصى

دفعت رغبة عبد المومن في تقوية مكانته وبسط نفوذه وتعزيز جيشه بالفرسان وتكثير عدد أنصاره، فضلا عن غياب العصبية القبلية لديه،- كان لا ينتمي لأي قبيلة من القبائل الموحدية في تينمل- إلى اتخاذ قرار توطين قبيلته "كومية" القادمة من المغرب الأوسط ، والتي لعبت دورا مهما في تقوية شوكته وعصبيته كما رفعت من عدد أتباعه، حيث نزلت " قبيلة كومية في جيش عظيم من أربعين ألف فارس فرتبهم عبد المومن في الطبقة الثالثة.. وجعلهم من بطانته ". ويبدو أن عدد الفرسان المقدم لا يعبر عن العدد الإجمالي الحقيقي للمستقرين بالمغرب الأقصى من قبيلة كومية ، خصوصا إذا أضفنا إليهم أسر هؤلاء الفرسان؛ فإن العدد سيكون مرتفعا، مما ساهم في تعزيز البنية الديموغرافية داخل المغرب.